الاحترام: مفهوم أساسيّ في البناء الاجتماعيّ

الأب سليم دكّاش اليسوعيّ*

لكلمة «احترام» هذه مكان هامّ اليوم في التصريحات والخطب والمواعظ والبيانات: من احترام «الحقوق والحرّيّات» واحترام الأشخاص والمقامات المدنيّة والدينيّة، إلى احترام الملكيّة العامّة والخاصّة، واحترام صمت الآخرين والأشياء...! فكيف نرى هذا المفهوم وندركه، وما هي معانيه الأساسيّة؟

في اللغة، تعني كلمة «احترام» المهابة والاعتبار، وهي تشمل الأشخاص والأشياء. والكلمة في اشتقاقها من «حَرَمَ» تدلّ على المَنْع، فالحرام هو الممنوع، والحُرْمَة هي ما وجب القيام به وحَرُم التفريط به. وعلى الإجمال، لأصل الكلمة أهمّيّة، لا في اللغة فقط، بل على الصعيد الدينيّ والوجدانيّ والاجتماعيّ أيضًا. لأنّ له في مشتقّاته المدلولات الواسعة، وهو يبرز كفاصلٍ ومقياسٍ يسير عليه الإنسان إذا ما أراد أن يحيا حياةً مسؤولة.

وفي المعاني التي تتداولها العامّة. يقضي «الاحترام» بأن نولي أهمّيّة واعتبارًا إلى شيء ما، كاحترام الإشارات الضوئيّة وقوانين السير... والاحترام هو في الحقيقة شعور إنسانيّ أمام واقعٍ معيَّن، وهو، ككلّ شعور، كما يقول الفيلسوف الألمانيّ شيلر (Scheler)، مزدوج المعنى: إنّه يشير أوّلًا إلى أثرٍ أو انطباعٍ نحسّ به. وعلى هذا

* رئيس تحرير المشرق.

المستوى، فالاحترام هو ذاتيّ، مرتبط بتقدير شخصيّ وبإعجاب معيّن عندما يتعلّق الأمر بالأشخاص. فيكون الاحترام إذ ذاك انتخابيًّا وانتقائيًّا بحسب العمر والمهنة والوظيفة. إلّا أنّ شكلًا آخر من الاحترام يفرض نفسه عندما يكون نتيجةً لحكم عقلانيّ، فنتحدّث، على سبيل المثال، عن احترام الطبيعة والحياة والشّخص البشريّ. وبدل التوقّف عند تضادّ أو تباعد بين الذاتيّ والموضوعيّ، يصل الاحترام إلى حدّه المطلق عندما يسعى كلّ واحد إلى مطابقة الاحترام الذاتيّ لِما يستحقّ أن ينال موضوعيًّا قسطه من الاحترام.

وإذا ما أردنا أن نتعمّق في تحليلنا هذا، فلا بدّ من التوقّف عند الدوافع التي تكون في أساس الاحترام، وهي دوافع توقّف عندها أفلاطون. إنّها دوافع متنوّعة تشير إلى أنّ ما يوحي بالاحترام ربّما كان القوّة أو التسلّط أو الخوف أو المهابة (وبعضهم يجعل الاحترام جزءًا من المهابة). إنّه أيضًا الاحترام الناتج عن إعجاب أو تقدير أو غواية...

إلّا أنّ مفهوم «الاحترام» سيصبح في فلسفة الأخلاق محورًا أساسيًّا، «والشعور الحسّيّ»، و«الأثر العمليّ» و«الشعور الأخلاقيّ» الذي هو نِتاج العقل فقط. فالاحترام، في فلسفة إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٧٩٩) هو شعور أدبيّ عقلانيّ له جذوره في النفس البشريّة، وهو الجواب عن السؤال البديهيّ الذي يطرحه الإنسان الذي يسعى إلى الخير: «ما هو الباعث الأخلاقيّ؟ ما الذي يدفع الإنسان المحسوس إلى العيش بحسب القانون؟» الواقع أنّ القانون نفسه هو الباعث وهو الذي يشدّ الإنسان إليه، والقانون الأخلاقيّ هو الذي يولّد عند الإنسان شعورًا، غير مرتبط بالمحسوس، لكي يصير الإنسان نصيرًا للقانون. هذا الشعور هو الاحترام، الذي يتجاوز «الأنا» المحسوسة، لأنّه شعور كلّيّ، ولأنّ ما نريد احترامه هو ما تريد احترامه كلّ الكائنات العقليّة، وهذا ما يكشف لنا أنّ مصدر الاحترام هو القانون. وإذا كان فاعل الاحترام هو القانون، ففرض الاحترام هو القانون أيضًا، أي ما يوجّه إليه القانون الأنظار، لا الفرد، بل الشخص البشريّ، بل الفاعل الأخلاقيّ. فالاحترام لا يصدر

عن المحسوس الذي هو أنانيّ، بالرغم من أنّه بحاجة إليه. الاحترام هو قَبْليّ (a prion)[1].

في الاحترام ناحيتان: سلبيّة وإيجابيّة. السلبيّة تجعل من الاحترام خوفًا ونوعًا من الإكراه، خصوصًا عندما تتحرّك الأنانيّة وحبّ الذات والكبرياء الذاتيّة. إلّا أنّ الاحترام، في ناحيته الإيجابيّة، يتيح لنا أن ندرك ذواتنا أعظم من الطبيعة كلّها وهو يجعلنا ندرك أنّ قيمتنا هي من قيمة القانون اللامتناهية. وعندما نصل إلى هذا الحدّ من الإدراك، تصمت الأهواء وتفقد قوّتها وتترك الطريق حرًّا أمام الأخلاقيّة المجرّدة من كلّ حسّيّة أنانيّة مهما ارتفع شأنها وعَظُم. على هذا المستوى، ندرك أنّ الاحترام هو دافع عقليّ وهو الشعور العقلانيّ الأخلاقيّ العمليّ الذي يعبّر عن أنّ جوهر الإنسان هو حرّيّة.

إنّ دور «الاحترام» كمفهوم أخلاقيّ يقضي بأن يجمع بين إرادتنا الزمنيّة الحسّيّة وإرادتنا اللازمنيّة التي هي في أساس شخصيّتنا المميّزة؛ الاحترام هو إشارة شعوريّة إلى خضوعنا للواجب وللقانون الذي، بالاحترام، يدخل إلى النفس. والواقع أنّ الواجب، وإن لم يُنتج الخضوع، فهو يولّد الاحترام.

إنّ ما يشدّنا إلى الاحترام، بحسب الفلسفة الكانطيّة، ليس هو التدسيّ. فالاحترام، كشعور أخلاقيّ عقلانيّ، لا يدفع الإنسان إلى الانحناء أمام عظمة قوى تبقى غريبة، أكانت قوى اجتماعيّة أم قوى إلهيّة. نبتعد هنا بعض الشيء عن مفهوم «الحرام» في التقليد الشرقيّ، الذي هو مرتبط الارتباط الوثيق بما هو قدسيّ وإلهيّ، دون أن يفقد الاحترام، بحسب المفهوم الفلسفيّ، شيئاً من قيمته.

واللافت للنظر أيضًا في هذا النمط من التفكير الفلسفيّ «أنّ الاحترام ينطبق دومًا على الأشخاص، لا على الأشياء». فالأشياء تثير فينا الميل أو حتّى الحبّ أو المخافة، وكذلك الحيوانات، إلّا أنّها لا تولّد

(١) المرجع الأساسيّ هنا هو الكتاب الأوّل، الفصل الثالث، من نقد للعقل العمليّ.

فينا الاحترام، كما هو الأمر في الأشخاص، الذين هم غاية القانون الأخلاقيّ؛ والاحترام، من ناحية أخرى، يتطلّب من الآخر الشعور نفسه وهو الاحترام.

الاحترام، لأنّه ينبع من الإنسان ومن الإنسان الأخلاقيّ بالذات، هو ضريبة لا بدّ أن ندفعها أمام الآخر، أمام حقّه في الحياة والكرامة والحرّيّة والتعليم والاتّصال والعدالة والنموّ... الاحترام يتحقّق في العلاقات بين شخص وشخص: ربّما كان في إطار ما يسمّى بالعلاقة بين المَلِك والمملوك، بين الصغار والعظام. إلّا أنّ هذا الاحترام يبقى تقليديًّا، إذ إنّه يحلو للبشر أن يحترموا رئيسهم وسلطانهم. وربّما كان ذلك أيضًا في إطار علاقة الحبيب بالمحبوب: إنّه الاحترام الذي يعبِّر عنه الواحد عندما يحبّ الآخر حبًّا حقيقيًّا، وعندما يكون الحبّ مجرَّداً من كلّ مصلحة.

الاحترام الحقيقيّ، انطلاقًا من هذه المقولات التي عرضنا لها، موقعه في صميم العدالة. إذا أراد الإنسان أن يكون عادلًا بالحقيقة، عليه أن يعدل. الاحترام ينبع هنا من الإرادة الحاملة القِيَم، الإرادة بأن يكون الإنسان إنسانًا بكلّ تعييناته، بأن يعامَل، حتّى ولو كان صغيرًا أو مجرمًا، كإنسان لا كشيء من الأشياء. فالشخص لا يعامَل كشيء، إنْ كنّا مقتنعين بأنّه طريق نحو اللامتناهيّ والمطلق، وبأنّه مشروع للحياة التي لا حدود لها. فكلّ إنسان، بحسب الوازع الأخلاقيّ، يستحقّ الاحترام، والاحترام هو ضروريّ للصداقة كما هو ضروريّ في الحبّ. الاحترام هو الأساسيّ في كلّ شريعة أخلاقيّة، أكانت سياسيّة، أم اقتصاديّة، أم جنسيّة، أم دينيّة، وإلّا سقط الإنسان وبَقِيَ الحرف ليس إلّا.

في المسيحيّة نقول إنّ الله يحترم الإنسان الذي هو خليقته، وعندما أحترمُ الله وأحترمُ خليقته أكون في خطّ الله وعلى صورته ومثاله. إنّه قاعدة أساسيّة في التعامل بين الله وخليقته، فكيف لا يكون كذلك في التعامل بين الإنسان والإنسان، في حفظ أبسط الحقوق وفي ممارسة أبسط الواجبات. لا ننسَ أنّ نجاح الديموقراطيّات النسبيّ قام ويقوم على احترام الإنسان كشخص قادر أن يعبِّر عن آرائه وأفكاره وأن يبني وأن يشارك في البناء.